سيزيف .. بلا قمة !

قصة بقلم جان الكسان

الى صاحب قصة (اجهدي بالدعاء الاخر) المنشور في عدد سابق من « الاداب » .

هويتي صفراء ، مهترئة ، تحالف العرق والسنوات العشر الماضيات على حذف بعض كلماتها ، والناظر اليها لا يعرف سنة ميلادي ، ولا اسم والدي ، ولا الرقم الاخير من الارقام الثلاثة التي ترمز الى قيد المسكن ..

وأنا ـ كهويتي ـ أضعت بعض ذاتي ، والضياع الذي اعانيه نزق ، ذليل ، ثائر ، عات ، مستكين ، وفي واقع هذا الضياع تشعبت في يدي خطوط معنى السعي الحياتي لي وللناس الذين يدبون حولي : الذي يأكل منهم بطريقة تثير القرف ، والتي تخطر على الدرب بعجيزتها المدملجة تعطر ضحكاتها الرصيف .

قالت لي اليوم الجارة التي اسكن احدى غرف دارها : صباح الخير ..

لم أرد عليها التحية .. لا ادري لماذا .. كل ما اعرفه انني لم اكن عندما استيقظت في حالة نفسية اكون معها على استعداد لان أرد تحية او اجامل احدا ..

تألمت الجارة .. أسفت للتحية ألقتها بلا مقابل .. ودخلت انا غرفتي العن الشيطان .

وهتف في واقعي هاتف حاولت عبثا ان اخنق صوته : صباح الخير يا ولدي .. صباح الخير .. صباح الخير .. ليس اجمل من الخير يرجوه الانسان للاخر ، وليس أروع من استقبال الصباح بالدعاء الطيب .. حتى الذي تاه عن الدرب السوي ، يشعر براحة نفسية كبيرة عندما تفلت اهواؤه قليلا عن غيها السادر في متاهات الضياع ، ويجد نفسه في هالة النوازع الانسانية النقية .

دائما صوتها .. مسكينة .. امي .. يعذبني هذا الهاتف يحمل تهدج نبراتها .. من بعيد ..

منذ الطفولة وانا اعيش مع ذلك الصوت ، كنت استقبل الصباح منصتا اليها تجلس على حصير الغرفة البالي تدق صدرها بقبضتها، وتحدث صديقها المسيح حديثا ، هادئا ، عفويا .. كانت تطلب لي النجاح في المدرسة ، ولاخي الاصغر تنوير عقله لانه كان ـ كما تقول ـ خبيثا ، ولابي رزقا اكثر ، ولاختي المتزوجة هناءة في حياتها الزوجية ، وللعالم السلام .

ثم تروي له اسرار البيت : الطحين يكاد ينفد ، وكيس الفحم الصغير لا يملأ ما فيه المنقل ليلتين ، وثياب الاطفال ـ ثيابنا ـ اهترأ أكثرها .. والغلاء يخنق الناس ، ولا تنسى تذكيره بقطرميز السمن الذي يكاد يظهر قعره .

وتروح تتلو مزامير داود : « ارحمني يا الله كعظيم رحمتك .. وكمثل كثرة رأفتك امح معاصي » .. ولا أدري متى تنتهي اذ اكون قد غادرت البيت الى المدرسة وأصداء صوتها تملأ اذني .

كنت لا اصدق ان صديقها المسيح سيلبي طلباتها فورا ، فصحيح انني كنت انجح كل عام في المدرسة ، ولكن اخي لم ينور عقله ، اذ ما مرت سنوات حتى خطف ابنة الجيران وتزوجها ، وابي لم يزد رزقه ، ولم تنته قصة بؤسه ، فهو يحفر أقنية الماء في مزرعة الرز بقرية (سبع سكور) يرفع الفأس بيده الواهنة ، يد ابن الثمانين ، ويهوي بها على الارض يشق أديمها ليستنبت جيب صاحبها ثلاث ليرات كل مساء .. اما هناء أختي المتزوجة في بيتها فلان انسجاما قديما ربط بينها وبين زوجها .. اما سلام العالم ، فلا يزال حتى هذا اليوم مهددا بحماقة يرتكبها احد هؤلاء الذين أسموا أنفسهم أقطاب الدنيا .

لم اكن لاصدق ان كيس الدقيق سيمتلىء .. وان ثيابنا المهترئة التي كنت اشبهها وهي تتحدى خيوط البنطال فتبرز منه بحشية مخدة جارتنا فهيمة المشهورة في الحي باهمالها ، ستنقلب جديدة ، كما لم اتصور ان تنتهي ازمة الغلاء او يمتلىء قطرميز السمن ، او كيس الفحم ..

ومع كل هذا فان شيئا ما في اعماقي كان يشعرني بان صديقها الكبير ينظر اليها بعين رحيمة ، وفي نظرته تلك كنت ارى معنى لوجودي ، معنى ما .

***

وعاشت معي عينان .. أهم ما في تاريخي التافه الذي يتداعى في ذهني الان .. كان ليل بهيج يستيقظ فيهما .. يا لعينيها السوداوين .. من اجلهما ودعت امي ، وحملتهما زوادتي في رحلتي الجديدة مخلفا ورائي بلدتي الصغيرة تحلم هادئة قرب النهر بلا سعادة ..

وفي المدينة ، جئت ازحم القامات والمناكب .. لم اعد راغبا في فلسفة الامور .. اقنعت نفسي بانني لا استطيع ان افعل شيئا من اجل تبديل مجرى الحياة ، فالراهبة تبتهل في صلاتها بايمان ، والخاطئة تمعن في غيها بضلال ، وملح الحياة يرش هنا .. ويرش هناك ..

لم اكن عندما غادرت البلدة بحاجة الى زاد غير العينين ، فقد كان فيهما معنى حياتي ، وكثيرا ما ساءلت نفسي وأنا أحتسي اقداح الشاي الثقيل في مقهى البلدة : لماذا تنفرد هي دون كل النساء بهاتين العينين اللتين اسرتاني حتى نهاية أبدي ؟.

ويغص الجواب في اعماقي .. وتظل العينان الآسرتان تدفعان في حياتي ثورة ملهوفة ، وايمانا بانني سأفتقدهما في كل نساء العالم ..

***

كلهم جدد .. الاصدقاء الذين قال لي زميل : يجب ان تقرأهم لتفهم ما هي الحياة .. ورحت اقرؤهم : سارتر ، وكافكا ، وابن حيان، ودي بوفوار ، وكامو ، ونيتشه ، وابن خلدون ... وامتلأ رأسي بآرائهم فرحت أعاني ضياعا من نوع جديد .

تشعبت الامور في ذهني .. وبدأت اتساءل عن معنى هذا العبث الوجودي الذي أحياه ، فأتعب ، حتى درجة الاعياء .. ويتعب معي السؤال ، وأفتقد الارتياح الذي كانت تبعثه نداءات امي وهي جالسة على الحصير تدق صدرها بيدها وتكشف اسرار بيتنا امام صديقها الكبير .

وأدفع رأسي تحت صنبور الماء ، ثم أدفنه في وسادة ، واحلم بأشياء كثيرة : مرة أرى المرأة الجميلة التي صعدت امامي الى الباص ، وقد اسلمت قيادها ليدي تعريها من ثيابها وتعبث بجسدها بخبث ومهارة .. ومرة أرى نفسي في غرفة التشريح بالمستشفى أفرغ من معدة جثة ميت بقايا طعام كان قد التهمه قبل ان يموت ..

ومرة اجد معي اصدقائي الجدد ، سارتر ورفاقه .. أجلس معهم على حصير قديم ، ونروح نتحدث مع المسيح حديثا عفويا ، ونذق صدورنا بأيدينا ، ثم نروح نتلو مزامير داود بتنغيم وابتهال : « ارحمني يا الله كعظيم رحمتك ، وكمثل كثرة رأفتك امح معاصي »

***

وانتشلتني خواطرها التي قرأتها في صحيفة .. طويت جراحي وقرأت خواطرها .. لا ادري لماذا أحسست بالارتياح الذي افتقدته دائما ، عندما بدأت أعيش سطورها كلمة كلمة وحرفا حرفا .. ورحت أتمثل صاحبة الخواطر وكأنني عابد وثني يتمثل الها ليعبده : القامة رشيقة ، القد ملفوف ، الصدر يعلن عن نفسه بتحد خجول .. الوجه مليح بديع .. الاسنان لؤلؤية .. الابتسامة عذبة .. الشعر كشعر طالبة تجهيز مهذبة .. العينان جميلتان كعيون كثيرات من النساء ..

وأحسست برغبة عنيفة لان ارى هذه الانسانة ، وفي يوم اللقاء كانت المفاجأة : القامة رشيقة ، القد ملفوف ، الصدر يعلن عن نفسه بتحد خجول ، الوجه مليح بديع .. الشعر كشعر طالبة تجهيز مهذبة .. العينان ...

يا الله .. هل يمكن هذا ؟.. هل من رحلة جديدة وزوادة جديدة ؟..

انا لا اريد نهاية للعبث الوجودي .. اليس رائعا ان تشرق في حياتي بالمدينة عينان سوداوان بروعة العينين اللتين ودعتهما في بلدتي الحالة قرب النهر ؟

أليس رائعا ان تبدأ الحياة من حيث كان يجب ان تنتهي ، وتنتهي من حيث كان يجب ان تبدأ ؟

وتضحك العينان .. يضحك فيهما صباح ابدي .. وتعود احلامي طفلة ، لا يدي تعبث بجسد الصاعدة الى الباص ، ولا هي تفرغ بقايا الطعام من معدة الجثة .. اما جلسات سارتر ورفاقه فقد استبدلتها بجلسات طويلة معها .. مع خواطرها التي طويت جراحي ورحت اعايش صروفها الملونة ، وفواصلها الانيقة ، ومعانيها التي تعيش في كل حنوة وتحلق في كل سماء ..

***

وارتسم في الجو سؤال : هاتان العينان ، هل ستكونان لي ، أم سأفتقدهما في خريف ما كما افتقدت اللتين قبلهما ؟..

ويغص الجواب من جديد في أعماقي .

والتفت الى العينين فاذا الجواب فيهما حائر غامض .. وتظل الرؤى عن اللحظات التي اعيشهما معهما ماثلة كلوحات ضبابية في ايامي بعناد واستمرار .. وعندما ينام الناس ويأخذ الكرى بمعاقد الاجفان ، تتضح امامي معالم هذه اللوحات الضبابية ، ويشع منها ألق يخنق اعصاب عيني بقسوة كبيرة ، فانداح في الدوامة ، ويقفز السؤال من جديد : نرى .. هل ستكونان لي ؟

***

أنا لا اريد ان اجيب ..فليس في يدي ان اضفر اكليلا من الورد لجنازتي ، أو أوزع بطاقات فرحي بنفسي .. فانا سيزيف من نوع جديد ، حكم علي مجتمع الناس بما حكم به الالهة على سيزيف بطل الاسطورة اليونانية . ولكني عبثا أفتش عن القمة التي أحمل اليها صخرتي .. انني لا اجد سوى سهل منبسط ، تتوالى فيه حفر ، لي في كل منها كبوة انهض بعدها لاتابع رحلتي ..

هويتي صفراء مهترئة ... وامي صديقة للمسيح.. كم أنا الان بحاجة الى دعائها ، الى جلسة منها على الحصير تدق صدرها بيدها ، وتطلب لي من المسيح شيئا اخر غير النجاح في المدرسة .. يا للعينين السوداوين !..

دمشق — جان ألكسان

منشـــورات
مكتبة المدرسة ودار الكتاب اللبنـاني

بيروت ــ ص.ب ٣١٢٦ ــ تلفون : ٢٧٩٨٣

سلسلة الجديد في القراءة العربية

جزءان لروضة الاطفال

خمسة اجزاء لمرحلة التعليم الابتدائي (الشهادة الابتدائية)

سلسلة الجديد في الادب العربي :

اربعة اجزاء لمرحلة التعليم الابتدائي العالي (الشهادة التكميلية)

جزءان لمرحلة التعليم الثانوي (البكالوريا)

سلسلة القواعد العربية الجديدة :

اربعة اجزاء لمرحلة التعليم الابتدائي (الشهادة الابتدائية)

اربعة اجزاء لمرحلة التعليم الابتدائي العالي (الشهادة التكميلية)

سلسلة دروس الاشياء والعلوم الجديدة :

خمسة اجزاء لمرحلة التعليم الابتدائي (الشهادة الابتدائية)

الجديد في الجغرافيا :

اربعة اجزاء لمرحلة التعليم الابتدائي (الشهادة الابتدائية)

اربعة اجزاء لمرحلة التعليم الابتدائي العالي (الشهادة التكميلية)

جزءان لمرحلة التعليم الثانوي (البكالوريا)

سلسلة التاريخ الجديد :

ثمانية اجزاء لمرحلة التعليم الابتدائي والتكميلي

(الشهادة الابتدائية والتكميلية)

سلسلة الحساب الجديد :

سبعة اجزاء لمرحلة التعليم الابتدائي (الشهادة الابتدائية)

لمرحلة التعليم التكميلية (شهادة البريفه) :

Physique, Chimie, Algèbre, Géometrie.

Sciences Naturelles

اربعة اجزاء للصفوف التكميلية

الجديد في البحث الادبي :

(لمنهج البكالوريا)

ابن الرومي فنه ونفسيته من خلال شعره (لمنهج البكالوريا)

Mon Nouveau livre de Grammaire

ثمانية اجزاء لمرحلة التعليم الابتدائي والعالي

(الشهادة الابتدائية والتكميلية)

Mon Nouveau livre de Lecture et de Français

جزءان لمرحلة الروضة ــ خمسة اجزاء لمرحلة التعليم الابتدائي

(الشهادة الابتدائية)

اربعة اجزاء لمرحلة التعليم الابتدائي العالي (الشهادة التكميلية)

The New Direct English Course

احدث سلسلة لتعليم القراءة الانكليزية :

جزءان لمرحلة الروضة

اربعة اجزاء لمرحلة التعليم الابتدائي

The New Direct English Grammar

احدث سلسلة لتعليم قواعد اللغة الانكليزية في ثلاثة اجـزاء

الدليل العام لشهادة الدروس الابتدائية

Dictée Choisie

حساب ، انشاء ، اشياء ، تاريخ ، جغرافية ، املاء فرنسي ، املاء انكليزي .